منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية بين النظرية والتطبيق

دراسة تحليلية موازنة بين أهل السنة والمعتزلة

إعداد

دكتورة/ أسماء منصور محمد عوض حجاز
المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بالقاهرة
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، تحرّت العقول في حقيقة ذاته، وتخطّت الأفهام في أسمائه وصفاته، يا من دل على ذاته ذاته، وشهد بوحدانيه نظام مصنوعاته ومبدعاته، أشهد أن لا إله إلا أنت، وأصلك وأرسل من خاتم أبنائك ورسلك، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد

ففي دراستي لصفة (الإرادة الإلهية) أثناء إعدادي للرسالة التي نلت بها درجة العالمية، والتي كانت بعنوان (إرادة الله ومدى تعلقها بين علم الكلام واللاهوت المسيحي) وجدت اختلافًا بين علماء الكلام في تصنيف هذه الصفة؛ فمن المتكلمين من عدّها ضمن الصفات الذاتية، ومنهم من عدّها ضمن الصفات الفعلية، بل منهم من نظر إليها باعتبارها صفة ذاتية وفعلية معًا، كذلك فإن منهم من نظر إليها باعتبارها صفة (معنى) أو صفة (وجودية) قائمة بذاته تعالى، ومنهم من نظر إليها باعتبارها صفة (سلبية).

فوقع في ذهني أثناء ذلك عدة تساؤلات لعل أهمها: هل هذا الخلاف قاصر على صفة الإرادة فقط أم أن هناك اختلافات في تصنيف صفات أخرى، ما الذي دفع بعلماء الكلام إلى

- 1393 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

تقسيم الصفات الإلهية؟ هل كانت هناك دوافع دفعتهم إلى تقسيمها؟
أم أن هذه التقسيمات كانت من قبيل النضج العقلي أو الترف الفكري؟
وعلى كلٍّ فمن أول من وضع هذه التقسيمات التي تناولها بالبحث
والدراسة؟ هل انعكس ما مرَّ به علم الكلام من تطورات على مناهج
علماء الكلام في تقسيم الصفات الإلهية بحيث وجدت في كل مرحلة من
مراحلها مناهج مختلفة في تقسيمها؟
ما الذي أدى بعلماء الكلام إلى الاختلاف في تصنيف صفة الإرادة
؟ هل كان هناك اختلاف بين الفرق الكلامية في مفهوم أر وحدَّ صفة
الإرادة وصفة الفعل نفسه بما أدى اختلاف الحدّ أو الضابط إلى
اختلاف ما يندرج تحت كل قسم من الصفات؟ أم أن الاختلاف كان
يعود لاختلاف حول مفهوم الصفة نفسها بين الفرق الكلامية؟ وإذا
كانت ضوابط المتكلمين قد اختلفت فما مدى دقَّة هذه الضوابط التي
وضعوها في الجانب التطبيقي من حيث اندراج الصفات أو عدم
اندراجها تحت كل قسم من الأقسام؟ وما مدى توافق هذه الضوابط
أيضاً مع المذهب العام لكل فرقة في موقفها العام من مشكلة الصفات؟
إن مشكلة الصفات الإلهية على الرغم مما لها من أهمية وعمق في
علم الكلام الإسلامي كأحد أهم المشكلات التي ساهم الجدل حولها
في نشأته، بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من الصفحات التي سودت
بحثًا فيها ؛ فإن هناك العديد من أوجه القصور أو التقصير من جانب

1394 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

الدراسات الحديثة التي تتناول هذه المشكلة؛ فلا نكاد نجد مؤلفاً واحداً من المؤلفات الحديثة - على حد علمي - عالج مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية في دراسة مستقلة بذاتها، بل مما يلفت النظر أن غالب المؤلفات الحديثة تقترض على استخدام منهج واحد من مناهج علماء الكلام وهو منهج المتأخرين من الأشعراء؟ والذي يقسم الصفات الإلهية إلى صفات ذاتية وسلبية ومعنوية ومعنوية، بل حتى في عرض هذا المنهج لا نكاد نتطرق تلك المؤلفات إلى أي اختلاف ظهر بين المتكلمين في تصنيف الصفات الإلهية داخل هذا المنهج نفسه؛ بالرغم من أن هناك اختلافات حول بعض الصفات كصفتي القدَّم والبقاء مثلاً; فقد كان الأشعراء - في أحد قوليه - ينظرون إليهما نظرة إلى ما أطلق عليه المتأخرون (صفات المعاني) أو (الصفات الوجودية)؛ فقد كان يقول إن الله تعالى قدّم بالبقاء Translator: 

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي حاولت من خلالها تتبع منهج من أهمّ مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية؛ وهو منهجهم في تقسيمها إلى صفات ذاتية وصفات فعالية.

وقد هتمت بدراسة هذا المنهج دون غيره من مناهج علماء الكلام نظراً لإهمال العديد من المؤلفات الحديثة له على الرغم من أهميته

- ۱۳۹۵ -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

وموقعه بين مناهج المتكلمين في تقسيم الصفات الإلهية ؛ فهو أول مناهج علماء الكلام ظهورًا على الساحة الكلامية ؛ وظل مستخدماً في جميع مراحل علم الكلام وأطواره.

وفي تناولنا لهذا المنهج قمت بمحاولة تتبع جذوره لدى المنتدقين من علماء الكلام الإسلامي ؛ ثم تناولت مفهوم علماء الكلام الإسلامي لصفات الذات وصفات الفعل والاصطلحات التي استخدمها المتكلمون للدلالة على كل منهما ؛ ثم الأسباب التي ترجع إليها اختلافات المتكلمين في تصنيف الصفات الإلهية داخل هذا المنهج ؛ والضوابط التي وضعها الفرق الكلامية لتميز الصفات الإلهية الذاتية من الصفات الإلهية الفعلية، والأثار التطبيقية لهذه الضوابط على ادراج الصفات تحت كل قسم، ومدى تأثير مفاهيم الصفات الإلهية وتأثيرها بهذا المنهج في تصنيفها، ثم تناولت أهم الأحكام التي وضعها الفرق الكلامية لكل من الصفات الذاتية والفعلية، وبينت ما كان موضعاً لانتفاقهم من هذه الأحكام، وما اختلفوا فيه.

وأخيراً أدعو الله عزّ وجلّ أن أكون قد وقفت في هذه الدراسة، وأن تكون اللبلبة الأولى لتشييد بناء علمي يتناول جميع مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية.

الباحثة
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

دخل

نشأة منهج علماء الكلام في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

نصت العديد من مصادر التراث الإسلامي على أن مشكلة الصفات الإلهية لم يكن لها حضور في عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؛ كما نصت أيضًا على أنهم كانوا ينظرون إلى أسماه الله تعالى وصفاته الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية نظرةً واحدةً دون تقسيم أو تفرقة بين صفهٍ وأخرى. يقول المقريزي: "من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط—من طريق صحيح ولا سليم—عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرت عدهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن شئ مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريم في القرآن وعلى لسان نبئه ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجدود والإنعام والعزيز والعظمة وساقوا الكلام سوقًا واحداً".

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي 356/2، دار الصادر بيروت، ط. بدون.

والنظر: أعلام الموقعي، ط. عبد الروؤف سعد 49/1، دار الجبل بيروت 1973 م.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

ومن هنا فقد أكد كثير من الباحثين المحدثين على أنه "لم يعرف عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين تقسيم الصفات الإلهية ولا الخوض في ذلك، وأن مسألة تقسيم الصفات الإلهية بصفة عامة كانت مسألة تابعة لظهور مشكلة الصفات في الفكر الإسلامي". (1)

والآن نجد الأسئلة الآتية تطرح نفسها علينا:

متى بدأ تقسيم الصفات الإلهية وما أول منهج أنبع في تقسيمها؟

ومن أول من وضع هذا المنهج؟ وهل كانت هناك دوافع معينة لوضعه؟

إن المنتج للنصوص المتعلقة بمشكلة الصفات في المؤلفات الكلامية الأخرى التي وصلتنا يلاحظ أن أول مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية هو تقسيمها إلى صفات ذات وصفات فعل (ذاتية وفعالية)؛ ولكن تلك المصادر لا تعطينا إجابات صريحة فيما يتعلق بالوقت الذي وُضع فيه هذا المنهج بالتحديد، كما أنها لا تمتلك وضع هذا المنهج لشخصية معينة، ولا تشير إلى دوافع أو

(1) الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات للشمس السفلي الأفغاني 2/ 467
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

بواعث حدث إلى وضعه.

ولكن إذا نظرنا إلى أواخر المسائل التي أثيرت في مشكلة الصفات، والنصوص التي حفظها لنا التاريخ عن الشخصيات التي أثارتها في محاولة للتنقيب عن البذور الأولية التي أثبتت تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذات وصفات فعل فإننا نجد أن أقرب المسائل لإنتاج هذا المنهج هي مسألة (خلق القرآن) التي أثيرت على يد الجعد بن درهم أول من نادى بالتعليل وبمذهب نفسي الصفات - فالقول بأن القرآن مخلوق يعني أنه فعل من أفعاله تعالى، فالخلق فعل، وجهم بن صفوان وهو، كما نعلم - أول من أخذ عن الجعد القول ب (خلق القرآن) قد نص صراحة - في مقولته له حفظها لنا الأشعري ضمن مقالات الإسلاميين - على أن "القرآن جسم وهو فعل الله" (3) وقد كان الجعد

(1) يقول د/ النشأة: "تجمع المصادر على أنه - أي الجعد بن درهم - أول من نادى بالتعليل وبمذهب نفسي الصفات، وأن الجعد بن صفوان أخذ عنه كل هذا، ويزعم ابن كثير وابن نباتة أنه أول من قال بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ، وذكر المصادر التاريخية المتعددة أيضاً، فيما ينص الدكتور النشأة - أن الجعد أقام بمدينة حتى أظهر القول بخلق القرآن، وأن هذا القول أوفر صور الأمامين عليه طلبهم فهو بدمشق وذهب إلى الكوفة وعاش بها، فقده فيها الجعد بن صفوان، وأخذ هذا القول عنه "نشأ الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشأة 331/13 مدار المعارف ط/8 (2) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلحين للأشعري نح/ محمد محي الدين عبد الحميد 231/1 المكتبة المصرية صيدا بروت 1399 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقييم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

وجهم يعنى بقولهما إن القرآن مخلوق، وإن فع الله أن القرآن (كلام الله) حداث وليس قديمًا كالذات الإلهية؛ وبذلك يكون قد ميزًا بين ذاتات الله وفعلها من حيث قدم الذات وحدود الفعل، وغرضًا البذور التي أثبتت منهج المتحللين في تقييم الصفات الإلهية إلى صفات ذات وصفات فعل، والنظر إلى صفة باعتبارها صفة ذات قديمة، وإلى أخرى باعتبارها صفة فعل حداثة.

ولعل مما يؤكده ارتباط مسألة تقييم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية بمسألة (خلق القرآن) أننا سنجد عند حديثنا عن ضوابط المتحللين لتمييز صفات الذات وصفات الفعل. إن أهم ما كانت تسعي إليه كل فرقة أثناء وضعها لضوابطها في الفصل بين صفات ذات وصفات الفعل هو إيجاد ضابط يتوافق مع قولها في صفحة (الكلام) ومسألة (خلق القرآن)؛ فالمعتزلة دائمًا كانت تحاول إيجاد ضابط الذي يجعل من (الكلام) صفة فعل؛ بينما كان أهل السنة يذكرون من الضوابط ما يجعل من (الكلام) صفة من صفات ذات.

وبالإضافة إلى ذلك فإننا باعتماد الرأي المؤكد على صحة نسبة كتاب (الفقه الأكبر) أو بعض أجزاء منه للإمام أبي حنيفة (١) نستطيع

(١) ذكر ابن التذيم في الفهرست أن أبا حنيفة له أربعة كتاب في العقائد منها (الفقه الأكبر).

ولكن نسبة كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة موضوع شك؛ فلم يتفق العلماء على صحة نسبة هذا الكتاب إليه، وإن كان البرازي في المناقشة نص على أن جماعة كبيرة من المشايخ.
التأكد على أن تقسيم الصفات الإلهية والنظر إلى صفة باعتبارها صفة ذات، وإلى أخرى باعتبارها صفة فعل قد وضعت في تلك الفترة المبكرة؛ فقد كان الإمام أبو حنيفة معاصرًا لكل من الجهم بن صفوان وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد(1)؛ وقد اشتمل كتابه (الفقه الأكبر) على عبارة تحوي صراحة تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذاتية وفعلية؛ يقول أبو حنيفة: "إن الله لم يزل ولا يزال بأسمه وصفاته الذاتية والفعلية".(2)

وقد أعطت عبارة أبي حنيفة هذه – باعتبارها أقدم عبارة وصلتنا مشتملة على تقسيم الصفات الإلهية عمومًا – الحق للدكتور النشار وغيره في القول بأن أبا حنيفة كان "أول من وضع فروقًا دقيقة بين صفات الله".(3) وهي كذلك التي دفعت شمس الدين الأفغاني إلى القول

(1) انظر: الفقه القدسي والدكتور النشار، إيمان السندي، 1975.
(2) انظر: إيمان السندي، 1975.
(3) نشأة الفكر الفلسفي، 1997.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

بأن: "أول من قسم الصفات إلى الذاتية والفعلية من أئمة الإسلام هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ثم تلاه آخرون".(1)
ولكننا لا نستطيع الجزم بهذه الاجتهادات، خاصة مع الشك في صحة نسبة كتاب الفقه الأكبر نفسه إلى أبي حنيفة، وضياع المؤلفات الكلامية الأولى ؛ بل إننا على العكس من هذه الآراء نرجح أن يكون هذا التقسيم من وضع المعتزلة الأول لا من وضع الإمام ؛ لأن متقدمي السلف لم يكن من عادتهم - كما أخبرنا بذلك المؤرخون - الإسراف في الكلام في المطالب الإلهية، فقد كانوا لا يكادون يتجاوزون الكتاب والسنة في مبحث الصفات(2) وأبو حنيفة بصفة خاصة انصرف عن علم الكلام ولم يكن يقتتح مجاله أو يخوض مجددته فيه إلا "عندما تضطره حاجة فكرية أو إجتناب حق إلى هذه المجدلة".(3)
فألا نرجح هنا أن أبا حنيفة - إذا صحت نسبة هذا الكتاب أو هذه العبارة منه على وجه الخصوص - كان بعبارة معارضة للون من التقسيم لصفات الله كان قد وضع بالفعل من قبل غيره لا مستحدثا له ؛

(1) المثابريدية وموقفهم من توحيد الذات والصفات 2 / 48.
(2) المثل والحل الشهريستاني تج / محمد سيد كيلاني 46 الدار الثقافية العربية ط / بدون وانظر: مقدمة ابن خلدون 83 طبعة دار الكتاب وانظر: مختصر الصواعق المرسله على الجهوية ومعطلا لابن قيم الجوزية تج / محمد عبد الرحمن حمزة 21/1 المطبعة السلفية القاهرة.
(3) أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه 28.
يعد ذلك أنه حكم بقدم جميع صفاته تعالى صفات الذات وصفات الأفعال معارضاً القول بحدود صفات الأفعال.

وعلى كلٍّ فقد كان تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذاتية وفعالية هو أول المناهج التي ظهرت، كما أنه بالرغم مما أدى إليه تطور علم الكلام واتصاله بالفلسفة في المراحل التالية من تنوع وعمق في تقسيم الصفات الإلهية متأثراً في ذلك بمناهج الفلسفة في تقسيمها - فقد ظل لهذا المنهج الأول حضوره ووجوده في جميع مراحل علم الكلام وأطرافه، رغم مزاحمة المناهج الجديدة له على الساحة الكلامية.

ولعل الأمر في ذلك يرجع إلى الأسباب التالية:

أولاً: ارتباط هذا التقسيم في المراحل الأولى - كما بتنا - بأبرز مسألة دار حولها النزاع الكلامي بأسره وهي مسألة (خلق القرآن).

ثانياً: اشتداد النزاع الذي كان بين فرقتين أهل السنة (الأشاعرة والمثاتبيية) حول الصفات الفعلية وطريقة إثباتها لله عز وجل. فقد شغل هذا النزاع مساحات واسعة من الجدل بين فرقتين أهل السنة، وسجله البعض كأحد أهم الخلافات الكلامية الحقيقية بينهما كما سنفصل.

ثالثاً: ارتباط هذا المنهج أيضاً بمسألة (حلول الحوادث في ذات الله تعالى) - كما سنبين عند الحديث عن حكم المتكلمين بالقدم أو الحدوث على صفات الفعل - وتلك مسألة - كما تعلم - شغلت
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

مساحة واسعة من كتابات المتقدمين والمتأخرین من علماء الكلام على حد سواء.

***
الفصل الأول
الصفة الذاتية والصفة الفعلية عند علماء الكلام
(مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الأول: الصفية الذاتية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الثاني: الصفية الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الثالث: الصفية الذاتية الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)
المبحث الأول

الصفة الذاتية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

إذا حاولنا تصنيف الصفات الإلهيّة وبيان نوع كل صفة في منهج المتكلمين في تطبيقها إلى ذاتية وفعالية، وجدنا أن المتكلمين قد ميزوا بين ثلاثة أنواع: صفات ذاتية، صفات فعلية، صفات ذاتية فعلية.

فالصفة الذاتية عمومًا نسبة إلى الذات، وقد وضححة كتب الحدود الكلامية والمعاجم الفلسفيّة أن "ذات الشيء نفسه وعينه" (1)، "الذات نفس الشيء وجوهره" (2)، "الذات حقيقة الموجود ومقوماته" (3)، والذات "هو المنسوب إلى الذات، ويطلق على ما يقوم الموضوع ويلزمه اضطرارًا، وهو جزء من الماهية ينحصر في الجنس والفصل، وكل خارج عن الماهية فهو عرضي" (4). يقول الأمدي "الذي عبارة

(1) الحدود الأثيقة والتعريفات الدقيقة زكريا بن محمد الأنصاري تح/ مازن المبارك 71

(2) مفاهيم العلم للخوارزمي، تج/ فان فلوتين، تعليق/ محمد كمال الدين 18 ط/ 1 مصر 1349

(3) المعجم الفلسفي صدر عن مجمع اللغة العربية بمسقط إشراف د/ إبراهيم مدرك، مادة رقم 374. وانظر: الكلمات لأبي البقاء الخفري تح/ عدنان درويش ومحمد المصري 454 مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط/ 2 1419 هـ/ 1998 م

(4) المعجم الفلسفي د/ جميل صليبا 1/ 581، 1 ط/ 20، دار الكتاب اللبناني بيروت 1971 م، وانظر: الحدود الأثيقة والتعريفات الدقيقة 70

- 1406 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

عما يقال على شيء وهو سابق في الفهم على فهم ذلك الشيء المقول عليه من ضرورة فهمه؛ كالحيوان والناطق بالنسبة للإنسان.”(1) ومن هذا يعرف البزدي في كتابه أصول الدين الصفات ذاتية عمومًا بأنها:

"ما يستحيل وجود الذات بدونها؛ كالتركيب للمركب صفة ذاتية لا يتصور وجود المركب بدونه."(2)

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال في غاية الأهمية ألا وهو:

إذا كانت الصفات ذاتية صفة عامة تعبير عن ماهية الشيء وجوهره وحقيقةه، وماهية الله وحقيقة ذاته(3) غير معلومة للخلق؛ فكيف خاض

(1) المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين سيف الدين الأمدبي تح/ حسن محمود الشافعي 72 ط/2 مكتبة وطبة 1413 هـ 1993 م
(2) أصول الدين أبي البسرالبزدي، تح/ هاز بيرلنس، نص وتعليق أحمد حجازي السقا 34 المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة 1424 - 2003 م.
(3) لفظة ذات نفسها "أنكر قوم إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه؛ أما عدم إطلاقها فلا أنها لفظة تأتي، والباري سيحان منزهًا عن الأسماء والصفات المؤثرة، وأما عدم إضافتها فلا أنها عين الشيء، والشيء لا يضاف إلى نفسه. وأجاز آخرون إطلاقها على الباري تعالى وإضافتها إليه، أما استعمالها فلوجهين:

أحدهما: أنها قد جاءت في الشعر القديم:

قال حبيب الصحابي عند صلبه:

ولكذا في ذات الله وإن ينشأ يبارك على أوصال شهو مزروع

وقال التابع:

محبتهم ذات الله ودينهم قديم فما يخشون غير العواقب

= ١٤٠٧ -
المتكلمون في بيان أسمائه وصفاته تعالى الذاتية؟

لقد طرح المتكلمون بأنفسهم هذا التساؤل، ونصت المصادر على وجود خلاف بشأنه بينهم؛ فمن المتكلمين من ذهب إلى جوان تعقل ذاته تعالى؛ ومن ثمّ جوز أن يكون له اسم إزاء حقيقة المخصصة، ومنهم من ذهب إلى امتثال تعقلها ومن ثمّ لم يجوز ذلك، محتجًا بأن وضع الاسم لمعنى فرع تعقله ووسيلة إلى تفهمه، فإذا لم يمكن أن يعقل ويفهم فلا ينصور اسم بإزاره. (1)

= والوجه الثاني: أنها لفظة اصطلاحية فجاز استعمالها لعلى أنها مؤنة ذه ستستخدم ارتجالاً في مسماها الذي عبر عنه بها أرباب النظر الإلهي، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرض وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه. وأما متعهم إضافاتها إليه تعالى وأنه لا يقال ذاته لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه فبفاطل بقولهم أخذته نفسه وأخذته عنه، فإنه بالاتفاق جائز وفيه إضافة الشيء إلى نفسه. موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي د/ سعيد دغيم 1/ 597 مكتبة لبنان ناشرون ط/ 1988 م. وانظر:

بديان الفوائد ابن القيم تك/ علي بن محمد العمان 2/ 400 م، دار عالم الفوائد.

وقد رجحت بعض المصادر الموقف الأول بناء على أن: "الخلاف في تعقل كنه ذاته، وضع الاسم لا يتوافق عليه؛ إذ يجوز أن يعقل ذاتًا ما يوجه ما ووضع الاسم لخصوصية، ويفهمها باعتبارٍ مماثلًا لها، ويكون ذلك الوجه مصححًا للوضع وخارجًا عن مفهوم الاسم، كما في لفظ الله، فإنه اسم علم له موضوع لذاته من غير اعتبار متعين فيه". (1)

ومن هنا نوّه إلى أن المتكلمين في منهجهم لتقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية لم يخوضوا في بحث صفات الله تعالى من حيث الكنه أو الماهية، بل كان يبحثون فقط محاولة للتمييز بين ما هو متعلق ذاته من صفاته سبحانه، وما هو متعلق فعليه واستغلاله على أساس من معاني الصفات نفسها ودعالتها، وسوف يتضح لنا ذلك من خلال عرض مفهوم الصفة الذاتية الإلهية عند علماء الكلام.

أولاً: مفهوم (الصفة الذاتية) عند المعتزلة:

(الصفة الذاتية) عند المعتزلة: "هي التي ترجع إلى الذات وتنسب إليها، وتكون الذات مستحقة لها استحقاقًا لا أزمنًا لا لمعنى سواها، ولا يصح خلو الذات منها، فهو لم يزل مستحقيًا لها ولا يزال، ولا يجوز

(1) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم/183/1996م.

= مكتبة لبنان ناشرون ط/1/1409م.
وصف الذات بضاها".

وقد اختالف المعزولة فيما بينهم في عدد الصفات الذاتية، كما اختلوا مع أهل السنة في ذلك أيضاً، ولياحظ أن المعزولة كانوا دائمًا يميلون إلى الإقلال من عدد الصفات الذاتية؛ فهي لم تزد على صفتي العلم والقدرة عند أبي علي وأبي هاشم، وقام أبو الحسن البصري باختزالها إلى صفة واحدة هي العالمية.

وقد نص الشهريستاني على "أن واصل ابن عطاء كان يبني صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة وانتهى نظر أصحابه بعد مطالعة كتب الفلسفة إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالمًا قادرًا ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان، هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائي، أو حالان كما قال أبو هاشم، وقيل أبي الحسن البصري إلى ردهما إلى صفة واحدة هي العالمية."(3) ومن هذا يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: "الصفات الإيجابية لفظًا ومعنى والتي أثبتها المعزولة من صفات الذات هي القدرة والحياة والعلم "(4) وإن كان يمكنها مشكلة الذات الإلهية والصفات عند القاضي عبد الجبار المعزولي: 62 وما بعدها.

1(1) المصدر السابق 72.
2(2) المصدر السابق 46.
3(3) المعلق والنحل 1/46.
والنظر: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة على عبد الفتاح المغربی 227مكتبة وهبة 1410 -
القول بأن عموم المعتزلة اتفقوا على إثبات خمس صفات ذاتية وهي
العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر. (1)
ثانيًا: مفهوم (الصفة ذاتية) عند أهل السنة:
إذا تأملنا في نصوص أهل السنة نجد لمصطلح (الصفات الذاتية) أو
(صفات الذات) استخدامين:
لاستخدام الأول: هو استخدامه كعلم على جميع الصفات
المتعلقة بذاته تعالى في مقابلة الصفات المتعلقة بفعله ؛ فكل ماهو
متعلق ذاته تعالى سواء استحققه سبحانه لذاته دون معنى زائد عليها، أو
استحققه لمعنى - من وجهة نظرهم - أو الصفات السلبية أو الإضافية أو
الخبرية المتعلقة بذاته، وغير ذلك مما ليس مستحقًا له تعالى لفعله أو
فعل غيره يدرج تحت الصفات الذاتية عند أهل السنة في هذا
الاستخدام.
يقول صاحب (إشارات المرام): "الصفات الذاتية: أي المنسوبة
إلى ذات الصنائع المعال، إما بالاتصال بها من غير قيام معنى به
كالصفات السلبية، مثل كونه واحداً مجردًا ليس في جهة ولا حيز،
والإضافية مثل كونه الأول والآخر والقابض والباضط، أو بالاتصال
بها لقيام معنى به من الصفات البدوية كالعلم والقدرة والإرادة والكلام،

= ط/ ١٤٠٧١٩٨٦م.

(1) مشكلة الذات الإلهية والصفات عند الفاضي عبد الجبار ٧٢.
- ١٤١١ -
وما يرجع إليها أي إلى الصفات الذاتية مما تتصف ذات الصانع به من الصفات المتشابهات التي تعقد مع التنزية عن إرادة ما يوهم ظواهرها من الكيفيات كاليد والوجه والنفس والعين، ومما تتصف به ذات الصانع من كونه تعالى مرئياً بأيام عبادة المكرمين في الجناة، مع التنزية عن إحاطة البصر والكيفيات، والكون في شيء من الجهات. (1)

ومن ثم نجد أن الباقلاني في الإنصاف والتمهيد قد نص على أن الصفات الذاتية هي جميع الصفات القديمة الواجبة لله تعالى؛ يقول في التمهيد: " فإن قال قائل ففصلوا لي صفات ذات من صفات أفعاله لأعرف ذلك: قيل له: صفات ذات هي التي لم يزل ولن يزال موضوعًا بها كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينين واليدين والغضب والرضى وهم الإرادة على ما وصفناه، وهي الرحمة والسخط والولادة والعدواة والحب والإيثار والمشيئة وإدراكه تعالى لكل جنس يدركه الخلق" (2).

ونجده البهائي في كتاب الاعتقاد على مذهب السلف يقول:

(1) إشارات المرام من عبارات الإمام كمال الدين أحمد البياضي الحنفي تح/ يوسف عبد الرزاق 107 مصنف الباب الحلي مصطفى 1949م.
(2) تمهيد الأوائل وتحليل الدلائل للباقلاني تح/ عمار الدين أحمد حيدر 299 م.

1412
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

"صفات ذاته ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال، وهو على قسمين؛ أحدهما عقلي، والآخر سمعي؛ فالعقل ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به، وهو على قسمين؛ أحدهما ما يدل خبر المخبر عنه ووصف الواسف له بعذره ذاته؛ كوصف الوصف له بأنه شيء ذات موجود قدوم إله ملك قدوس جليل عظيم عزاز متكبر... والثاني ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواسف له به على صفات زائدات على ذاته قائمات به؛ وهو كوصف الوصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باقي فذلته هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته قائمة به كحياته وعلمته وقادرته وارادته وسمعته وبصره وكلامه وبقائه... وأما السمعي فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط كالوجه واليدين والعين، وهذه أيضًا صفات قائمة ذاته لا يقال فيها إنها هي المسمى ولا غير المسمى، ولا يجوز تكييفها؛ فالوجه له صفة، ولدvw/صورة، واليدان له صفتان ولدvtان ولدvtان الأذان، والعين له صفة ولدvtات بهدقة وطريق إثباته له صفات ذات ورود خبر الصادق به" (1) وقد جرى تعريف ابن سابق السباقي الأشعري للصفات الذاتية في كتابه (الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية) على

(1) الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، أبي بكر أحمد بن الحسين البهتي، تح/ أبو الفضل عبد الله محمد الصديق 22، دار العهد الجديد 1369/1950 م.
هذا النموذج.

كما عَرَف الشيخ عبد السلام المالكي في حاشيته على الجوهرة
الصفة الذاتية قائلًا: "صفات الذات ما قام بها أو اشتق من معنى قائم بها
كالعلم وعالم". (1) فصفات الذات تشمل في هذا الاستخدام كل هذه
الأقسام.

ولكن ينبغي هنا أن ننوه إلى أنه نظرًا لاشتداد النزاع بين أهل السنة
والمعترفية حول ما استحققه سبحانه وتعالى من هذه الصفات الذاتية
معنى زائد على ذاته - من وجهة نظر أهل السنة - والتي اشتهرت باسم
الصفات القيمية، صفات المعاني، الصفات الوجودية) دون غيرها مما
أطلق عليه (صفات ذات) في هذا الاستخدام ؛ فإن مصطلح (صفات
الذات) بالمفهوم السابق قد أصبح عند أهل السنة مصطلحًا يطلق على
صفات (المعاني) بصفة خاصة ؛ يقول محمد بن محمد الأمير في حاشيته
على شرح الشيخ عبد السلام المالكي لجوهرة التوحيد عند شرحه
لمفهوم (صفات الذات): "أي المقصورة اصطلاحًا خاصًا على

(1) انظر: الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية لأبي بكر محمد بن ساق
الصقلي، محمد الطبراني، 116 دار الغرب الإسلامي، تونس، 1980 م.
(2) اتخاذ المريد شرح الشيخ عبد السلام المالكي على جوهرة التوحيد للإمام النقاني
مطبوع مع حاشية محمد بن محمد الأمير على شرح عبد السلام ص 193 الطبعة الأخيرة
1388هـ/1968م، مطبعة مصطفى الحلبى، مصر.

- 1414 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

المعاني". (1) ويقول الشيخ عبد السلام في شرح قول الفقيه: "يذكر صفات ذاته": " أي القائمة بذاته تعالى وهي السبع السابقة". (2) يقصد صفات المعاني السبع، وفي شرح البيجوري لمفهوم (صفات ذاته) يقول أيضاً: " هي صفات المعاني السبع أو الثمان على الخلاف في ذلك". (3) وقد نصت العديد من مصادر أهل السنة على هذا الاصطلاح فيما بينهم. (4)

ولنلاحظ أن هذا الاصطلاح في إطلاق (صفة ذاته) - بمفهومها المقابل لصفات الأفعال - على (صفات المعاني) بصفة خاصة قد بدأ منذ عصر أبي حنيفة ؛ ففي نص أبي حنيفة السابق الذكر نجدـه - كما لا حظ الدكتور النشار، حدد الصفات الذاتية بسبع فقال: " أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام السمع والبصر والإرادة ".(5) واقتصر

(1) حاشية محمد بن محمد الأمير على شرح عبد السلام لجوهرة التوحيد 92.
(2) اتحاف المرشد 97.
(3) تحقية المرشد على جوهرة التوحيد إبراهيم البيجوري 105. طبيعة الإدارة المركزية للمعهد الأزهرية مصر 1410 هـ، 1990 م.
(5) الفقه الأكبر: 58.

1415
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالة

الأشعري و كثير من متكلمي أهل السنة عليها أيضًا دون غيرها من صفات الذات .(1)

ويمكننا إرجاع هذا الإطلاق لدى أهل السنة إلى سببين:

الأول: أشتد النزاع حول هذا النوع من صفات الذات بين المعتزلة وأهل السنة أكثر من غيره كما ذكرنا.

الثاني: انتواء النزاع حول أنواع أخرى من الصفات الذاتية تحت مباحث أخرى في الكتب الكلامية ؛ كانتشار النزاع حول اليد والوجه وغيرها من صفات ذاتية تحت مبحث (الصفات الخبرية). (2)

الاستخدام الثاني: في نصوص أخرى لأهل السنة نجدهم يستخدمون مصطلح (الصفات الذاتية) أو (صفات الذات) للدلالة على ما يستحق سبباه وتعالي من الصفات لذاته دون معنى زائد، وذلك

(1) اللعم في الرد على أهل الزعتر والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري نج/ حمودة غرابية المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة والتاريخ / بدون وانظر: بحر الكلام المنسفي تحق: ولي الدين محمد صالح الفرفور 90 مكتبة دار الفرفور / 1421هـ، 2000م.

(2) وقد عل لبعض أهل السنة بأنفسهم هذا الحصر للصفات الذاتية على هذه السبع كما في مذهب الأشعري أو أهلهم على مذهب الماتريدي، يقول الإمام حسن بن أبي بكر المقدسي " فضائل الذات ثمانية ولا ينتقص الحصر بكون عزة الله وجلالة كابن من صفات الذات لأن مرادهم صفات ذات المفردة لا التي صارت صفة ذات بواسطة الإضافة " نماية المرام في شرح بحر الكلام للإمام حسن بن أبي بكر المقدسي نج/ عبد الله محمد عبد الله إسماعيل د/ محمد السيد أحمد شحاته 40 المكتبة الأزهرية للتراث ط/ 1432هـ/2012م.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

كما في استخدام الرافيِّ له في لوائح المبانِ، يقول: "صفات الله تعالى على ثلاثة أقسام: صفات ذاتية، وصفات معرفية وصفات فعلية، أما الصفات ذاتية فالمراد منها الألفاظ الدالة على الذات كالوجود والشيء والقديم، وربما جعلوها الألفاظ الدالة على السرب من هذا الباب؛ لقولنا واحد وغني وقديس. وأما الصفات المعرفية فالمراد بها الألفاظ الدالة على معان قائمة بذات الله تعالى كقولنا عالم قادر، وأما الصفات الفعلية فالمراد بها الألفاظ الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرته تعالى."(1)

ومن نماذج هذا الاستخدام أيضًا ما جاء في أصول الدين للبغدادي المسألة الخامسة عشر من الأصل الثالث بعنوان: (في بيان أوصاف الصانع في ذاته) فقد أورد تحت هذه المسألة الأوصاف التي يستحقها سبحانه لا لمعنى زائد على ذاته بل لنفسه، وبعض الاختلافات فيها.(2)

وقبل أن نغادر إلى الحديث عن صفة الفعل ينبغي الإشارة إلى أن المتتبع لنصوص المتكلمين المتعلقة بحث مسألة الصفات يلاحظ بوضوح وجود مصطلح آخر يستخدمه المتكلمنون للدلالة على جميع ما دل عليه مصطلح (صفة الذات) سواء عند المعتزلة أو عند أهل السنة.

(1) لواضع المبانِ 24.
(2) انظر: أصول الدين للبغدادي 88، 89. دار الكتب العلمية بيروت 1401، 1981 م. والنظير الفرق بين الفرق العبودي تح/ محمد بدر 227 مطبعة المعارف - 1417 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

؛ ألا وهو مصطلح (صفة النفس) أو (الصفة النفسية) ؛ فقد استخدم علماء الكلام مصطلح (الصفة النفسية) أو (الصفة النفسية) كبديل عن مصطلح (الصفة ذاتية) وكان اصطلاحًا متناولاً بين كثير من المتكلمين ؛ فنجد القاضي عبد الجبار يبادل في حديثه عن الصفات ذاتية عند المعتزلة بين مصطلحي (الذات) و (النفس) ؛ يقول عند حديثه عن صفة العلم: "وأما الذي يدل على أنه جل وعز يكون عالماً فيما لا يزال هو أنه يستحق هذه الصفة لذاته، والموصوف بصفة من صفات الذات لا يصح خروجه عنها بحال من الأحوال."(1) وفي حديثه عن صفة القدرة:

"وأما الذي يدل على أنه تعالى يكون قادراً فيما لا يزال فهو أنه يستحق هذه الصفة لنفسه، والموصوف بصفة من صفات النفس لا يجوز خروجه عنها بحال من الأحوال."(2) فالملاحظ هنا أنه استبدل مصطلح صفة النفس) بمصطلح (صفة الذات) وكلتا الصفتين (العلم والقدرة) من الصفات الذاتية بإجماع المعتزلة.

وقد ورد أيضًا استخدام مصطلح صفة النفس) كبديل لمصطلح (صفة الذات) في جميع استخداماته التي وضحتها عند أهل السنة ؛ فقد استخدمه الإمام الأشجعي بكثرة في مقالات الإسلاميين معبأً به عن

(1) شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد نجع/ عبد الكريم عثمان 1988،1408هـ
(2) المصدر السابق 155

1418 -
الصفات المقابلة لصفات الفعل كما في الاستخدام الأول لمصطلح (الصفة الذاتية) عند أهل السنة؛ فنجد تعبير الأشعرى لمقالات المعتزلة مثلاً يقول: "واعتلوا في معتن القول إن الله جواب؛ وهل الوصف له بذلك من صفات النفس أو من صفات الفعل". وفي حديثه عن الجئاوي يقول: "كان يفرق بين صفات النفس وصفات الفعل بما هي بينهما من المعتزلة قبل هذا الموضوع".

وأما بالنسبة لاستخدامه كعلم على صفات المعاني بصفة خاصة؛ نجد الأمدي في كتابه (غاية المرام) وأيضاً (أيكر الأفكار) يعنون بعنوان: (في إثبات الصفات النفسية) ويقول تحته: "مذهب أهل الحق من الأشعراء أن الواجب بذاته قادر بقدرته مريد بإرادة عالم علم متكلم بكلام متعمد بسمه بصير حيّ بحياة وهذه كلها صفات وجودية أزلية زائدة على ذات واجب الوجود". فقد قصر الحديث تحت هذا

مراجع:
(2) مقالات الإسلاميين 2/ 397/ 396/ 395/ 394/ 393/ 392/ 391.
(3) أيمان فهمي، مؤسس واسع فهمي، 1428/ 1427 هـ.
(4) أيمان فهمي، مؤسس واسع فهمي، 1428/ 1427 هـ.
(5) المجلة العلمية للجامعة الإسلامية القاهرية 1/ 1971 هـ.

- 1419 -
العنوان على صفات المعاني.

كما أن الأشعري في عرضه مثلاً لقول الزيدية في الصفات ذكر أنهم
فروقنا ثمان مبین أن الفرقة الأولى يقول: "البارز عالم علم لا هو ولا
غيره... قادر بقدرة لا هي هو ولا غيره... وكذلك قولهم في سائر صفات
النفس كالحياة والسمع والبصر "(1) ثم يقول في عرض مقولة الفرقة
الثانية منهم: " يزعمون أن البارز عز وجل عالم قادر سميع بصير بغير
علم وحياة وقدرة وسمع وبصر وكذلك قولهم في سائر صفات
الذات"(2)، فالملاحظ على نصي الأشعري استبدال مصطلح (صفات
الذات) بمصطلح (صفات النفس) مع الاقتصار على ذكر صفات
المعاني.

وأخيراً فقد ورد مصطلح (الصفة النفسية) بالمفهوم الثاني الذي
ورد به مصطلح (الصفة الذاتية) عند أهل السنة، أي دالاً على الصفات
التي يستحقها سبحانه وتعالى لذاه دون معنى زائد عليها، يقول
البيجوري: " المراد بالصفة النفسية صفة يدل الوصف بها على نفس
الذات دون معنى زائد عليها "(3).

ويمكننا أن نقرر أن استعمال مصطلح (الصفة النفسية) هو الأكتر

(1) مقالات الإسلاميين 1/ 146.
(2) المصدر السابق 1/ 147.
(3) تحفة المريد 27.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

شيوعًا في هذا المعنى في كتابات أهل السنة وخاصة المتأخرين منهم، ومن نماذجه استخدامه في الإرشاد: "أعلم أن صفاته تعالي منها نفسية ومنها معنوية، وحقيقة صفة النفس كل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت النفس غير معللة بعلاقة قائمة بالوصف، والصفات المعنوية هي الأحكام الثابتة للموضوع بعلاقة معللة بعلاقة قائمة بالوصف"(1). ومما لا شك فيه أن التقارب اللغوي بين مصطلحي ذاذا والنفس - كما بينا - كان وراء هذا التقارب بين مصطلحي الذات والنفسية في استخدامات المتكلمين.

***

(1) الإرشاد إلى قواعدين الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرومين عبد الملك الجويني علّه وخرج آياته وأحاديثه زكرها عميرات 17 دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط / 1416ه 1995م و انظر هذا الاستخدام أصول الدين للبغدادي 89، 127. وانظر: الفرق بين الفرق 227. تمهيد الأوائل 263.
البحث الثاني:

الصفة الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

الصفات الفعلية نسبة إلى الفعل؛ والفعل بصفة عامة كما في لسان العرب: "كل عمل متعبد أو غير متعبد" (1).

ومن ثم فإن الصفات الفعلية الإلهية تشمل:

- ما هو مشتق من الأفعال الإلهية اللازمة: أي التي لا تتعلق بها غير الدت الإلهية؛ مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمحيي للفصل بين العباد يوم القيامة ونحو ذلك مما نص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية.

- ما هو مشتق من الأفعال الإلهية المعتدية: أي التي يتعدى تأثيرها أو تتعلقها إلى غير الدت الإلهية من المخلوقات، أو التي تعبر عن نوع علاقة وارتباط بين الله تعالى ومخلوقاته، سواء أكانت تلك الأفعال متعلقة بأمور الدنيا من خلق العالم وإخراج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ورزق الأحياء وإماتتهم وإرسال الرسول، أم متعلقة بأمور الآخرة.

(1) انظر اللسان مادة فعل – ون歩いて هنا إلى أن الصفات الإضافية تنازل في الفعلية. لأن كل صفة فعلية من مادة تعديل إلى المفعول كالخلق والاحياء والإماتة فهي صفة إضافية، وليس كل صفة إضافية فعلية، فينها عموم وخصوص من وجه، يجتمعان في نحو الخلخ والإحياء والإماتة، وتنفرد الفعلية في نحو الاستواء، وتنفرد الإضافية في نحو كونه تعالى موجوداً قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، لأن القبلية والفوقيا من الصفات الإضافية، وليس من صفات الأفعال.

١٤٢٢ –
البعث والحساب.

يقول ابن تيمية في كتابه (الأسماء والصفات): "الأفعال - أي الإلهيّة - نوعان: معتد ولازم؛ فالمعتدي مثل الخلق والإعطاء و نحو ذلك، واللازم مثل الاستواء والنزول والمجهر والإتيان؛ قال تعالى:

اِذْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاَتِ وَالْأَرْضَ فِي سَبَعِ يَوْمٍ فَمَّا اسْتَوَى عَلَى

الْعُرُشِ (السجدة: 4) فذكر الفعلين المعتدي ولازيم".(1)

ولاحظ أن كلا النوعين مشتق له سباحته وتعالي من فعله هو، وهناك نوع ثالث من صفات الأفعال غير مشتق له سباحته من فعله؛ بل من فعل غيره ؛ يقول البغدادي: "وجملة أسماءه قسمان مشتق وغير مشتق، فالمستقبل منها نوعان. أحدهما مشتق من صفة له قائمة به... والثاني مشتق له من فعل... وذلك نوعان أحدثهما مشتق من فعله كالخلق والرزاق والمنعم و نحو ذلك، والثاني مشتق له من فعل غيره كمعبد ومشكور و نحو ذلك "(2).

ويقول الأشعري في بيانه لمذهب المعتزلي في صفات الأفعال: "وكل اسم مشتق للبارز من فعله كالقول مفضل منعم محصن خالق رازق عادل جواد وما أشبه ذلك فهو من صفات الفعل، وكذلك كل اسم

(1) الأسماء والصفات ابن تيمية تح/ محمد السيد 2/137. دار الدعوة الإسلامية ط/1، 1432 هـ.
(2) أصول الدين البغدادي 18، 117، وانظر: إشارات العرام 115.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلاً و전문ية

اشتق للبارئ من فعل غيره كالقول معيوب من العبادة، وكالقول مدعو من دعاء غيره إياه فليس من صفات الذات، وكلما جاز أن يرغب إلى البارئ فيه ليس من صفات الذات."(1) وعلي ذلك يمكننا أن نقرر أن الصفات الفعلية الإلهية ثلاثة أقسام.

ولكن ينبغي أن ننه هنا إلى أن مصطلح (صفات الأفعال) بالرغم من ادراج الأقسام الثلاثة تحته إلا أنه يطلق في غالب نصوص المتكلمين على النوع الثاني فقط؛ أي ما هو مشتق من الأفعال الإلهية المتعالجة؛ حتى أننا نلاحظ أن تعريفات علماء الكلام لصفات الفعل وتمثيلاتهم لها تنطبق في الغالب على هذا النوع فقط.

ففي تعريفها يقول الرازي في لوحاته: "وأما الصفات الفعلية فالمراد بها الألفاظ الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرة الله تعالى".(2)

وجاء في إشارات المرام: "الصفات الفعلية: أي التي هي منشأ الأفعال، ومبدأ لإخراج المعدوم من عدم إلى الوجود، الراجعة إلى التكوين العام وما يرجع إليها من أفعاله المتعلقة بأمر الدنيا؛ كخلق الأعمال وتدبير نظام العالم بإرسال الأنبياء ونصب الإمام، والمتعلقة بأمر الآخرة كالإعادة والإثابة والمعاقبة وسائر السمعيات الراجعة إلى

(1) مقالات الإسلاميين 2/ 195
(2) لوحات البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات 24
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

التكوين المخصص". (1)

- ويقول الشيخ عبد السلام المالكي "صفة الفعل ما اشتق من معنى خارج عنها - أي من معنى خارج عن الذات - كخالق ورازي فإما من الخلق والرزق". (2) ويقول البيهقي في تعريف الصفة الفعلية: "أما صفات فعله فهي تسميات مشتقة من أفعاله... وهو كوصف الواصف له بأنه خالق رازي محي مميت منعم متفصل". (3) ويقول صاحب المسامرة: "صفات الأفعال التي يدل عليها نحو قوله تعالى: "خالق البَرِئُ المَصُوْرُ" و نحو الرزاق والمحي والمميت، والمراد بها صفات تدل على تأثير". (4) ويقول (ملا علي القاري) في شرحه للفقه الأكبر: "الصفات الفعلية وهي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق". (5)

1) إشارات المرام 212.
2) اتحاف المريد ص 93.
3) الاعتقاد على مذهب السلف.
4) كتاب المسامرة في شرح المسامرة للكمال بن أبي شريف بن الهمام وشرح الشيخ قاسم بن قططبغا الحنفي مع حاشية زين الدين قاسم على المسامرة 1/89، 90 المكتبة الأزهرية للتراث، ط 21347، وانظر: اتحاف السادة المتقدمين بشرح إحياء علوم الدين.
5) 159

منج الروض الأزهر في شرح ألف القاري 82 مطبوع معه التعليم الميسر على شرح الفقه الأكبر وهي سليمان غاوجي ط 1988، 1419 هـ دار البشائر الإسلامية بيروت.
فالملاحظ على كل هذه التعريفات لصفات الفعل أنها منصة كلية
على النوع الثاني من الأنواع التي ذكرناها لصفات الأفعال.
كذلك فإن أغلب أمثلة المتكلمين لصفات الأفعال تركز على ذكر
أفعال من هذا النوع أيضًا فالبغدادي في أصول الدين يعتقد فصلاً
بعنوان: "في بيان ما دل من أسمائه على أفعاله ويمثل له بأسماء كابر
في الدلالة على بر بعبده، والباري في الدلالة على أنه خلق الخلق،
والباست في الدلالة على بسط الرزق فمن شيء وعلى أنه بسط
الأرض...والفاعث من أسمائه دليل على بعثه الرسول..."."(1)
وفي التمهيد للباقلانى: "وصفات فعله هي الخلق والرزق والعدل
وكل صفة كان موجودًا قبل فعله لها."(2)
ولعل ذلك التركيز على هذا النوع دون غيره من صفات الفعل
يرجع إلى سببين: الأول: اشتداد النزاع بين فرقتين أهل السنة (الأشاعرة
والمارونية) على هذا النوع الثاني أكثر من غيره.
الثاني: اندراج الحديث عن النوع الأول (ال الشريف الإلهية اللازمة
كالاستواء والنزول) تحت مبحث الصفات الخبرية.
هذا وقد اختلفت الفرق الكلامية في حقيقة هذا النوع من صفات
الفعل اختلافًا كبيرًا؛ وكانت لهم فيها آراء نعرضها على النحو التالي:

(1) أصول الدين للبغدادي 124.
(2) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل 299.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

(أ) الماتريدية: كان لهم فيها رأيان:
- الرأي الأول: وهو رأي المحققين من الماتريدية أن صفات الأفعال "التخليق والترزيق والتصوير والإحياء والإماتة وغير ذلك مما أُسند إلى الله تعالى كل منها راجع إلى صفة حقيقية أزليَّة قائمة بالنذات هي التكوين.

ويعرف النسفي صفة التكوين هذه بأنها: "صفة الله تعالى أزليَّة قائمة بذاته كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر، وهو تكوين العالم ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوهه". فالتكوين عندهم صفة ذاتية "تغاير القدرة فإن متعلق القدرة قد لا يوجد أصلاً بخلاف متعلق التكوين،

(1) شرح العقائد النسفي سعد الدين التفتاني ت/ أحمد حجازي السفا 41 مكتبة الكليات الأزهرية ط/ 1410 هـ - 1990م. وناظر التمديد لقواعد التوحيد أبي المعين النسفي ت/ محمد عبد الرحمن الشاغول: 5235، المكتبة الأزهرية للتراث. وناظر: المساسرة 1/ 89، إشارات المرام 213، تبصرة الأدلَّة في أصول الدين أبي المعين ميمون بن محمدانسفي ت/ كلود سلامة 1/3 2006 المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ط/ 1/1990م وناظر إلحاح السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين 158/1. وتنص المصادر على إثارةهم لفظة (التكوين) كعلم على هذه الصفات جميعها لأظهرتها في ذلك وشيوخ استعمال الخلَّق بمعنى المخلوق وتوافق أدتهم المتقدمين على هذه المفهومة.

(2) التمديد لقواعد التوحيد: 55 وناظر شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى بالاعتماد في الاعتقاد أبي اليركات النسفي ت/ عبد الله محمد عبد الله 195 المكتبة الأزهرية للتراث ط/ 1/1432 هـ 2001م.
القدرة متعلقة بمكان الشيء، والتكوين موجوده". (1)

 فالتكوين على ذلك أخص من القدرة؛ لأن القدرة متساوية بالنسبة إلى جميع المقدورات، وصفة التكوين خاصة بما يدخل من هذه الأشياء في الوجود. (2)

 ف"تلك الصفات - على مذهبهم - لها أسماء غير اسم القدرة؛ تسميها بما اعتبار أسماء آثارها... فإن كان ذلك الأثر مخلوقًا فالأسم الذي يدل على تلك الصفه الخلق والصفة الخلق، أو كان ذلك الأثر رزقًا فالأسم الذي يدل على تلك الصفه الرازق أو الرزاق والصفة التزيق، أو كان ذلك الأثر حياة فهو أي الأسم الذي يدل على تلك الصفة المحي والصفة الإحياء، أو كان ذلك الأثر موتًا فهو أي الأسم الدال على الصفة المميت والصفة الإماتة..". (3)

 وهذا وننوه هنا إلى أن إثبات صفة التكوين صفة ذاتية مغايرة للصفات السبع مما انفرد به الفكر الماتريدي، وأن مصادر كلامية تنص على أنهم إنما استنبطوا هذه الصفة (التكوين) من قوله تعالى: "إنَّا

(1) طوال الأثير من مطلع الأثير للفاضي ناصر الدين البيضاوي تح/ عباس سليمان 191
دار الجيل بيروت المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ط/ 1411هـ 1991م.
(2) انظر: أبو منصور الماتريدي حياة وآراء العقدية للفلاسفة العظمى 73 دار التركي للنشر 1989.
(3) المساحة 1/ 1/ 899 وانظر: إنجاح السادة المنتقين بشرح إحياء علوم الدين 2/ 159.
والناظر: غاية العلما في شرح بحر الكلام 356 357.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

قوئتِ نَيْسِيَّةٌ،ِ إِذَا أُرْضِيَتْ أَنْ تَقُولَ لَهُ ظُنُّ فَيُكُونَ» (النحل: 40)؛ حيث قالوا
إنه تعالى "جعل قوله كن مقدمًا على الكون وهو المسمى بالأمر،
والكلمة والتكوين والاختراع والإيجاد والخلق ألفاظ تشتريك في معنى
والترايع بمعنى ؛ وال المشترك فيه كن الشيء موجباً من عدم ما لم يكن
موجودًا".

(1) الرأي الثاني: وهو رأي نسبته المصادر الكلامية لبعض علماء ما
وراء النهر وفروعه أن كل صفة من صفات الأفعال صفة حقيقية أزلية.2)
يقول الإمام حسن ابن أبي بكر المقدسي في شرح بحر الكلام: 
واعمل أن كننها أي صفات الأفعال - صفات حقيقية مما تفرد به علماء
ما وراء النهر".

(ب) الأشعاراء:
تنص العديد من المصادر الكلامية على أن الأشعاراء عارضوا
وجهات نظر الماتريدية في صفات الأفعال ؛ فلم ينظروا إليها باعتبارها
صفة أو صفات حقيقية مستقلة مغايرة لصفات الذات ؛ وإنما نظروا إليها

(1) نقض المحصل للطوسي 187 مطبوع بهامش محصل أفكار المتقدمين والمتآخرين من
العلماء والحكماء والمتكلمين فخر الدين الرازي راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد
مكتبة الكليات الأزهرية.
(2) انظر المسامرة 1/90، إشارات المرام 2/136، غاية المرام في شرح بحر الكلام 355.
(3) غاية المرام في شرح بحر الكلام 355.

- 1429 -
باعتبارها تعلقات القدرات والإرادة التنافذية الحادثة.(1)

يقول ابن الهام في بيان مذهب الأشاعرة: "والأشاعرة يقولون ليست صفة التكوين على فصولها أي تافضيلها سوى صفة القدرة باعتبار تعلقاتها متعلق خاص، فال تعالى هو القدرة باعتبار تعلقاتها بالمخلوق، والترزيق تعلقاتها بإياض الرزق."(2)

وقالوا في بيان مذهبهم إن الله لم يوصف بالخالقية قبل الخلق، والواعظة قبل الرزق، وهذا الكلام في بقية صفات الفعل عندهم بناءً منهم على أن الفعل عين المفعول؛ إذ لا يتصور بدونه، كما لا يتصور الضرب بدون المضروب، وليس المراد بقولهم عنه أن مفهومه مفهومه ليلزم المحالات ؛ بل أرادوا أن الفاعل إذا فعل فعلاً فليس هناك إلا الفاعل والمفعول، وأما المعنى الذي يعبر عنه الفاعل كالتكوين والتحليق والترزيق فهو أمر امتناعي يحصل في العقل من نسبة الفاعل

---


(2) المسامرة 1/91. وقد اعتبر شارح على هذا التفسير لمذهب الأشاعرة موضحاً أن قول الأشاعرة إن التحليق نس في الفعل لا القدرة باعتبار التعلق. ويحتج الشارح هنا فيقول: "قال في شرح العقائد الإيجاد أمر اعتباري يحصل في الفعل من نسبة الفاعل إلى المفعول، وقال فيه أيضاً إن تعلق القدرة على وفق الإرادة يوجد المقدر لوقت ووجوده إذا نسب إلى القادر يسمى الخلق، وهذا ظاهر في أنه نفس التعلق لا القدرة باعتبار تعلقاتها.

- ١٤٣٠ -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

إلى المفعول وليس أمرًا محققًا مغايرًا للمفعول في الخارج؛ فالذاتية مثلاً لم كانت موجودة وجودها لكنهما مسأله في العقل؛ بمعنى أن العقل يلاحظ الذاتية دون وجود وبالعكس". (1)

يقول الرازي في لوائح البناء: "وأما الصفات الفعلية فلا يتعدى عبارة عن حالة ثابتة لذات الله تعالى، ولا معنى قائم بذاته تعالى؛ بل هي عبارة عن مجرد صور الآثار عنه، ولا معنى للمخلوق إلا أنه وجد المخلوق منه بقدرته، ولا معنى للمرازق إلا أنه وصل الرزق منه إلى العبد بسبب إيضاحه". (2)

ويقول سعد الدين التفازاني مبين معنى الإيجاد على مذهب: "معنى عقل من إضافة المؤثر إلى الآثر، فلا يكون إلا فيما لا يزال، ولا يفتقر إلا إلى صفة القدرة والإرادة". (3)

وقد قال الأشعراء في ردهم على مقولة الماتريدية بأن متعلق القدرة قد لا يوجد أصلاً بخلاف متعلق التكوين، وأن القدرة متعلقلي بإمكان الشيء والتكوين بوجوده بأن" الإمكان بالذات فلا يكون بالغير، والتكوين هو التعلق الحالي، ولذلك يرتب عليه الوجود". (4)

---

(1) غاية المرام شرح بحر الكلام 354،355
(2) لوائح البناء 25
(3) شرح المقاصد 170/4
(4) طوال الأوان من مطالع الأنظار 191. وانظر: مطالع الأنظار على متن طوال الأوان 185،184 وانظر: غاية المرام شرح بحر الكلام 354 ومايليه.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

(ج) المعتزلة:

للمعتزلة في صفات الأفعال موقف مشابه لموقف الأشاعرة؛ حيث قال أكثرهم - فيما ينقل البزدوية - ليس الله هذه الصفات كما ليس له سائر الصفات، وقالوا الإيجاد والموجود واحد وهذا الرحمة والمرحوم واحد." (1)

يقول الأشعري: "كان أبو الهذيل يقول إن الخلق الذي هو إرادة وقول لا يقال إنه مخلوق إلا على المجاز، وخلق الله سبحانه للشيء مؤلفاً الذي هو تأليف، وخلق للشيء ملوناً الذي هو لون، وخلق للشيء طويلاً الذي هو طول مخلوق في الحقيقة." (2)

وقبل أن نغادر الحديث عن الصفات الفعلية تنوء إلى أن المتكلمين قد استخدموا مصطلحات أخرى للدلالة عليها؛ فنجد الأندلسي يستخدم مصطلح (خارجية) للدلالة على الصفات الفعلية؛ يقول الأندلسي: "قال النافاذ: لو قادر له صفات فهي إما ذاتية أو خارجية." (3) كما استخدم بعض المتكلمين مصطلح (الصفات الاختيارية)؛ فقد عقد ابن تيمية في كتابه (الأسماء والصفات) فصلاً بعنوان (في الصفات الاختيارية) وأدرج

(1) أصول الدين للبزدوية 76.
(2) مقالات الإسلاميين 2/196، وانظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة 107، مكتبة النهضة المصرية ط/5.
(3) غاية المرام: 38.
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

تحته الكثير من الصفات الفعلية مثل خلقه تعالى وعدله واستوائه ونزوله ورحمته وإرادته، وعرف هذه (الصفات الاختيارية) بأنها: "الأمور التي يتصف بها الرَّب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدره مثل كلامه وسمعته وبصره و إرادته...". (1)

* * *

(1) الأسماء والصفات 2/128.
المبحث الثالث:

الصفة الذاتية الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

لا نقصد بالصفات الذاتية الفعلية تلك الصفات التي اختفت عليها المتكلمون فقال بعضهم بذاتها وقال آخرون بفعليتها، وإنما نقصد بالصفات الذاتية الفعلية نوعين:

الأول: صفات رأى المتكلمون أنها قد تكون صفات ذات باعتبار، وقد تكون صفات فعل باعتبار آخر.

الثاني: صفات رأى بعض المتكلمين أن جنس الصفات نفسها يعتبر صفة ذات، وآحادها يعتبر صفة فعل.

وإذا ظن المفكر نقصانًا ونماذج له:

النوع الأول: هناك من صفات الله تعالى ما نص المتكلمون على أنه يحمل أن يكون صفة ذاتية، ويعتبر أن يكون صفة فعلية أيضًا. وهذا النوع من الصفات يلاحظ وجوده بوضوح عند كل من المعتزلة وأهل السنة. فقد نقل الأشعري في مقالات الإسلاميين عن البصريين من المعتزلة: ”وأزعم أن الصفات على وجه ما يوصف به البالغ لنفسه كالقول عالم قادر حي سميع بصير، وشيء يوصف به لفعله؛ كالقول خالق راقص محسن متفتت عادل جواد حكيم متكلم صادق آمر ناه مادح ذاح مجي مريت ممرض مسح وما أشبه ذلك، شيء يوصف به البارئ لذاته وقد يوصف به لفعله؛ كالقول حكيم.

- ١٤۳٤ -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعالية

بمعنى عليهم من صفات النفس، والقول حكيم على طريق الاشتقاق من فعله الحكمة من صفات الفعل. وكالقول صمد بمعنى سيد يوصف به لذاته، وقد يوصف به بمعنى أنه مصمود إليه في النواحي؛ فيوصف به من طريق الاشتقاق من الفعل. (1)

ويُعْنِى البغدادي في أصول الدين لمسألة بعنوان: (فيما دل من أسمائه على معنيين) ويكمن تجربة: "هذا النوع من أسمائه كثير منها البديع فإنه يكون بمعنى المبدع للشيء، ومثه قوله عز وجل: (بديع السماوات والأرض) أي مبدعهما، وعلى هذا الوجه يكون هذا الاسم مشتقًا من فعله، وقد يكون البديع بمعنى الأول يقال منه بدع وبدع ومنه قوله: (ما كنت بدْعًا من الرُّسُل) أي ما كنت أولهم، ويكون البديع الذي لا يكون له مثل، وعلى هذين الوجهين يكون البديع من أسمائه الأزلية، ومنها الظاهر والباطن إن حملناهما على معنى أنه العالم بظواهر الأمور وبوطنينة كانا من أوصافه الأزلية، وإن حملناهما على معنى قوله وأسبع عليكم نعمة ظاهرة وباطنة كانا مشتقين من فعله، ومنها الجبار إن تأولناه على معنى القهر لأعدائه أو على معنى جبره للكسر كان مشتقًا من فعله، وإن تأولناه على معنى (الذي لا تنتال الأيدي) من لا ينال، كقولهم نخلة جبارة إذا لم تنلها الأيدي كان من صفاته الأزلية. (2)"

(1) مقالات الإسلاميين/ 2/ 192.
(2) أصول الدين للبغدادي/ 126، 127. وانظر: الفرق بين الفرق 327 وانظر: أصول الدين = 1435 -
وقد ذكر البغدادي العديد من النماذج الأخرى لهذا النوع.

ولعلنا نلاحظ أن هذا النوع من الصفات يعود في احتماليته لكونه
صفة ذات أو صفة فعل إلى تعدد في أصل الاشتقاق، وتعدد في المعاني
التي تحتملها الصفة، وهل هي مشتقة من متعلق الذات أم من فعل
الذات.

ونفصل هنا القول في نموذج لهذا النوع وليكن (صفة الحكم):

لقد نص علماء الكلام على أن أهل اللغة قد ذكروا لصفة الحكم
عمومًا أكثر من معنى، ويشيرون في هذا المقام إلى ما قاله ابن الأعرابي؛
ففي بيان معنى الحكم يقول النسفي في تبصرته للأدلة: "اختلاف في
ذلك أهل اللغة قال ابن الأعرابي: إن الحكم العلم والحكيم العالم؛
يقال حكم الرجل يحكم إذا تناهى في علمه وعقله، ومنه سمى القاضي
حكمًا لعلمه وعقله، وقال آخرون الحكم هو المحكم لشيء، وهو
فعال بمعنى مفعل؛ كأليم بمعنى مؤلم، وسمع بمعنى مسموع، وقال
بعضهم: الحكيم هو الذي يمنح نفسه عن هواها أو عن القبائح مأخوذ
من حكمة الفرس... وقيل الحكم معرفة الأشياء بحقائقها ووضعها
مواضعها، فكانت شاملة على العلم والفعل جميعًا؛ فمن جعل الحكم

= للبرزوي، 48، ومقالات الإسلاميين، 386، 2009، 2 / 2، 385، تبصرة الأدلة، 126.

- 1436 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

علماً جعل ضدها الجهل، ومن جعلها الفعل جعل ضدها السفه "(1)
وبناءً على هذا التعدد في المفهوم اللغوي لهذه الصفة قال علماء الكلام
بأن صفة الحكمة الإلهية تحتمل أن تكون صفة ذات وتحتم أن تكون
صفة فعل ؛ فأبو الحسن الأشعري " ذهب إلى أن الحكمة إذا أريد بها
العلم فهي صفة ذات، وإذا أريد بها الفعل فلا، وهذا هو قيام مذهب، قال
أبو بكر ابن فورك وأصلها العلم عند الأشعري، وإنما قسم الجواب لأنه
عرف اختلاف أهل اللغة فيها. وأبو العباس القلانسي جعلها من باب
الفعل لا غير، فكأنه ذهب إلى أنها من الإتقان أو المنع"(2).

كذلك فإن الماتريدي قد أكدوا على تلك الإحتمالية ذاتية الفعلية
صفة الحكمة، وإن كانوا قد نهوا على أن صفة الحكمة قديمة على كلا
الاعتبارين ؛ فقد جاء في شرح العمدة للإمام أبي البركات التبسي
الماتريدي : " صانع العالم حكيم ؛ لأن الحكمة هي العلم وضدها
الجهل، والحكيم هو العالم كما قاله ابن الأعرابي، يقال حكم الرجل
يحكم إذا تناهى في علمه فهو عالم في ما لم يزل ولا يزال للكليات
والجزئيات... وإن كانت الإحكام والحكيم بمعنى المحكم للأشياء
ففي بمعنى الفعل ؛ كالألين بمعنى المؤلم فهو موصوف بها في الأزل ؛
إذا التكوين أزلي عندنا كما أن العلم أزلي فكان حكيمًا في الأزل كما كان

(1) تبصرة الأدلة 1/ 384. والتمهيد لقواعد التوحيد 32.
(2) تبصرة الأدلة 1/ 385. 286.
النوع الثاني: هناك من الصفات الإلهية ما قال عنها بعض المتكلمين إنا إذا نظروا إلى نوعها وجدنا أن الله تعالى لم يزل ولا يزال متصفاً بها، فهي لازمة لذاته، وإذا نظروا إلى آحادها وجدنا أنها تتعلق بمشيئته وليست لازمة لذاته، ومثلها لذلك بصفة الكلام حيث قالوا: الكلام باعتبار أصله صفة ذات، لأنه سبحانه لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بالقدرة والمشيئة، وقد تقول ابن تيمية هذا القول عن ” كثر من أهل الكلام كالهلهمية والكرامية وأصحاب أبي معاذ التومني وزهير البامي وطوابغ غير هؤلاء يقولون إنه - أي كلام الله - صفة ذات وصفة فعل؛ هو يتكلم بمشيئته وقدره كلام قائمًا بذاته، وهذا هوا المعتقل من صفة الكلام لكل متكلم، فكل من وصف بالكلام كالملاكهة والبشر والجنة وغيرهم فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم.” (2)

***

(1) شرح العمد 211، 112، وانظر: التمهيد لقواعد التوحيد 26 وانظر منح الروض الأزهر 79.

(2) الأسماء والصفات 129/2.
الفصل الثاني

شروط علماء الكلام في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

البحث الأول: شروط المعتزلة في التمييز بين صفات الذات

وصف الفعل (النظرية والتطبيق)

البحث الثاني: شروط أهل السنة في التمييز بين صفات الذات

وصف الفعل (النظرية والتطبيق)
الفصل الثاني

ضوابط علماء الكلام في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

بالرغم من أن بدور تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية قد تم غرسها في مراحل مبكرة من نشأة مشكلة الصفات في الفكر الإسلامي - كما أضح لنا من خلال الحديث السابق - إلا أن علماء الكلام لم يكونوا قد وضعوا في تلك الفترة ضوابط تتميز بها صفات الذات عن صفات الفعل ؛ ولعل علماء الكلام في تلك الفترة المبكرة كانوا يعتمدون في التمييز بينهما على مأخوذ اشتقاق الصفة، وهل هي متزعة من الذات أو من فعل من أفعالها، بحسب وجهة كل مذهب في مأخوذ هذا الاشتقاق، ومفهوم الصفة نفسها في مذهبه.

ويمكننا أن نستخلص من حديث الدكتور النشار عن فلسفة أبي الهذيل العلاف في جنبها الإلهي أنه حتى عصر أبي الهذيل لم تكن قد وضعت ضوابط كلامية للتمييز بين صفات الذات وصفات الفعل، وأن العلاف وإن كان قد توصل إلى مفهوم صفات الذات واعتبرها هي هي الذات كما في الإصطلاح الفني الكلامي عند المعتزلة فإنه "لم يكن يميز تمييزاً واضحًا بين هذين النوعين من الصفات". (1) على حد رؤية

---

(1) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، 454، 455، 454.
الدكتور النشار في تأريخه.
ولكن نظرًا لاشتداد النزاع وحادته بين أهل السنة والمعتزلة حول ذاتية بعض الصفات أو فاعليتها خاصة صفات الكلام والإرادة؛ فقد واجهت كل فرقة حاجة ملمحة لوضع الضوابط الذي يميز الصفات الذاتية من الصفة الفعلية، وإن تفاوتت درجة الاهتمام بوضع هذه الضوابط بينهم؛ فالمعتزلة والاشاعرة نظراً لما وضعه من وجهة النفرة بين صفات الذات وصفات الفعل كانوا أكثر اهتماماً بوضع ضوابط التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل، أما الماتريدية والطحاوية فقد نظرا إلى جميع صفاته تعالي نظرة واحدة، ومن ثمّ قل اهتمام الماتريدية بوضع مثل هذه الضوابط وانعدم وضعها لدى أئمة الطحاوية.
وقد تكون المحاولات الكلامية الأولى لوضع الضوابط التي تميز صفات الذات عن صفات الفعل هي تلك المحاولات التي قام بها (الكعبي) وتابعه فيها بعد ذلك غيره من زعماء المعتزلة، واحتفظ لنا بها كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي، ثم توالت الضوابط التي وضعها علماء الكلام بعد ذلك وزادت دقة ووضوحها، وفي صفحات هذا البحث - بإذن الله - ستتعرض لما احتفظت لنا به كتاب علم الكلام التي وصلتنا من ضوابط وضعها المتكلمون في تميز صفات الذات من صفات الفعل.
ولكن ينبغي قبل عرض هذه الضوابط أن ننبه إلى أمر هام آخر وهو...
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

أن الضوابط في جانبها التطبيقي سواء عند المعتزلة أو عند الأشاعرة تتأثر تأثراً كلياً بمفهوم الصفات عند كل فرقة؛ بحيث يمكننا القول بأن اختلاف مفاهيم الصفات بين الفرق الكلامية هو الأساس الأول

لاختلاف الفرق في تصنيف بعض الصفات، لا اختلاف الضوابط نفسها ؛ فهناك من الضوابط - كما سنتبين - ما كان موضعًا لانفاق أهل السنة والمعتزلة، ومع ذلك اختلفت بعض الصفات في تصنيفها، نظراً لاختلاف مفاهيم هذه الصفات المختلف عليها فيما بين الفرق الكلامية.

وسوف نلقي مزيداً من الضوء على هذا الأمر أثناء العرض التفصيلي لكل من ضوابط المعتزلة وأهل السنة.

***

١٤٤٢ -
المبحث الأول

ضوابط المعترضة في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

وضع المعترضة عدة ضوابط لتمييز الصفات الذاتية عن الصفات الفعلية يمكننا عرضها على النحو التالي:

الضابط الأول: ما احتمل اختلاف الحال والشخص فهو صفة فعل,
وما لم يحتمل اختلاف الحال والشخص فهو صفة ذات.

وهذا الضابط بهذه الصياغة لم أطلع عليه إلا في كتاب التوحيد
للماتريدي ؛ فقد عنون الماتريدي لإحدى فقرات كتابه بهذا العنوان:
(آراء الكعبي في صفات الذات وصفات الفعل والرد عليها) وتحته ذكر
عدة ضوابط وضعها الكعبي كان هذا الضابط الذي ذكرونه أولها، وصيغة
الضابط كما أوردته الماتريدي عن الكعبي: " ما احتمل اختلاف الحال
والشخص فهو صفة الفعل، نحو القول: يرزق فلانا، ويرحم في حالت الاخلاق 
يرحم في حال، وكذلك صفة الكلام في الأحوال، ومثله في الأشخاص.
ومثله في القدر والعلم والحياة لا يحتمل فهو صفة ذات." (1)

ولكن ما مدى دقة هذا الضابط ؟ وما مدى توافقه مع مذهب
المعترضة بصورة عامة؟

(1) التوحيد 113.
من الواضح بداية أن الكعبي حاول أن يطابق بين ضابطه وبين مذهب المعتزلة في الصفات، فقد وضع أن صفات القدرة والحياة والعلم - وهي صفات ذاتية بالإجماع المعتزلة - لا تحتفل اختلاف الحال والشخص، حيث قال: (ومثله في القدرة والعلم والحياة لا يحتمل فهو صفة ذات)؛ أي ومثل هذا الاختلاف في الحال والشخص - بالنسبة لصفة العلم والقدرة والحياة لا يصح، ومن ثم عدناه من صفات الذات.

كما أنه طبق ضابطه أيضاً على أهم صفة متنازع عليها وهي صفة الكلام فقال: "وكل ذلك صفة الكلام في الأحوال، مثله في الآشخاص "; أي وكذلك صفة الكلام تحتل اختلاف الأحوال، واختلاف الآشخاص، فقيل تكلم في حال دون حال، وكلم فلا، ولم يتكلم فلا، فيكون الكلام صفة فعل.

ومن الواضح أيضاً أن هذا الضابط يتأثر تأثراً مباشرةً بمفاهيم الصفات الإلهية لدى الفرق الكلامية؛ فصفة (كلام الله) كأحد أهم الصفات المتنازع على كونها صفة ذات أو صفة فعل؛ إذا حاولنا تطبيق هذا الضابط عليها نجد ارتباطاً ملحوظاً بين مفهومها في مذهب المعتزلة، وبإمكاننا تطبيق هذا الضابط؛ فحقيقة الكلام محدودة على مذهبهم في "الحروف المنظومة والأصوات المقطعة"(1) أو على الأدق.

(1) شرح الأصول السخامية 528.
من مذهبهم ما "يحصل من الحروف المعقولة ولله نظم مخصوص"(1) وأنا كلام الله من جنس كلام البشر عند المعترف. (2) والكلام بهذا المفهوم يحتل بلا ريب اختلاف الحال والاختلاف الشخص.

أما مفهوم الكلام لدى أهل السنة فهو "صفة له أزلي لست من جنس الحروف والأصوات، وهي صفة قائمة بذاته متافية للسكت والآفة من الطفولة والخرس وغير ذلك". (3)

وهو بهذا المفهوم الذي وضعه أهل السنة لا يحتل اختلاف الحال والشخص.

وقد تعرض هذا الضابط للعديد من أوجه النقد من جانب أئمة أهل السنة، فقد بين أهل السنة أن هناك صفات تحمل اختلاف الحال والشخص ومع ذلك معدودة عند المعترف ضمن صفات الذات؛ فالإمام الماتريدي بعد ذكره لهذا الضابط أورد في إحدى علمه أن صفته السمع والعلم تحملان اختلاف الحال والشخص، ومع ذلك هما معدودتان عند المعترف ضمن صفات الذات؟ يقول الماتريدي: "ثم قد

المجموع المتحك بالتكليف في العقائد لفضائي القضاة / أبي الحسن عبد الحجيج بن أحمد، جمع الشيخ/ الإمام الحسن بن أحمد بن موتة تح/ عمر السيد عزمي، مراجعة د/ أحمد فؤاد الأهلي، 306. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(1) غاية المرام في شرح بحر الكلام 435.

(2) تبصرة الأذلة 1/ 359. وانظر: غاية المرام في علم الكلام 88، أبكار الأفكار 1/ 353.

- 1445 -
منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

يقال: سمع دعاء فلان ولم يسمع دعاء فلان؛ ويقول الرجل: ما علم الله ذلك مثني، ويقول علم مني في وقت كذا ولم يعلم مني في وقت كذا ؛ ثم لم يجب به أن السمع والعلم لا يكونان من صفات الذات، فما من ذلك في التكليم والرخصة؟(1)

- وكان الأشعري في الإبانة قد أورد قريباً من هذا الاعتراف، فقد علق فيه عل مذهب المعتزلة في الصفات قائلاً: "وقد فرقوا بين العلم والكلام فقالوا إن الله تعالى علم موسى وفروعه، وكلم موسى ولم يكلم فروعه ؛ فكذلك قد يقال - أي للمعتزلة - علم موسى الحكمة وفصل الخطاب وآتاه النبأة، ولم يعلم ذلك فروعه، فإن كان الله كلام لأنه كلم موسى ولم يكلم فروعه، فكذلك لله علم، لأنه علم موسى ولم يعلم فروعه. ثم يقال لهم: إذا وجب للكلام به كلم موسى دون فروعه إذ كلم موسى دونه، فما أنكرتم إذا علمهما جميعاً أن يكون له علم به علمهما جميعاً. ثم قد يقال: قد كلم الله الأشياء بأن قال لها كونه، وقد أثبت الله قوله، وإن علم الأشياء كلها فله علم "(2).

وفي نقد آخر لهذا الضابط يقول الماتريدي مخاطباً الكعبي: "يقال له رأيت الأبد أقسمت يسمى عندك بعض الأبد ولا يسمى بعضه، ثم لم يدل على اختلاف في حق الصفة، ما من ذلك في أمر الصفات وباختلافه.

(1) التوحيد ١١٤..
(2) الإبانة عن أصول الدينية تع/ فوقيا حسن محمود ١٤٦.